(10) المشكلة الثانية

[المذهب البراغماتي والمذهب الوجودي]

أيُّ المسعيين نحتاج إليه، المسعى الداعي إلى العمل النافع في الحياة أم المسعى الداعي إلى رجوع الإنسان إلى ذاته الباطنية لتحقيق ماهيته ومن ثمة ، تحمّله تبعات كل ما يترتب عن ذلك ، من قلق ؟

***

مقدمة : طرح المشكلة

I . المذهب البراغماتي: الأسس الفكرية والمنطقية للمذهب البراغماتي

أولا : كيف ولماذا وقع رفض الفلسفات التقليدية المجردة؟

ثانيا : ما هي القواعد التي ساعدت على تأسيس فلسفة عملية؟

II . المذهب الوجودي : الأسس الفكرية والمنطقية للمذهب الوجودي

أولا : هل الطبيعة التي يتصف بها وجود الأشياء تشبه طبيعة وجود الإنسان؟

ثانيا : أليس بإمكان الإنسان التمرد عن نظام الأشياء؟

ثالثا : وهل المعرفة الحقيقية تأتي من عالم الأشياء أو من العالم الداخلي للإنسان؟

رابعا : وهل يرتجى من كون الإنسان إنسانا، الحصولُ على السعادة أو الارتماءُ في يَمِّ المخاطرة وما يترتب عنها من قلق وشؤم؟

خاتمة : حل المشكلة.

تطبيقات : نص فلسفي

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

مقدمة : طرح المشكلة

إنّه على الرغم من المفارقات التي نلمسها في المذهبين، المذهب البراغماتي والمذهب الوجودي، ومن خصوصيات مصدرهما، فهل لأحدنا الحق في طرح التساؤلات التالية :

أيّهما الأصلح بالنسبة إليَّ : المذهب الذي **يقدّم لي الوسائل والأدوات** التي تساعدني على العمل والنجاح فيه أم هو الذي يهيّئ لي فرصة الرجوع إلى ماهية ذاتي أتأملها؟

هل هو الذي يعود عليَّ بفائدةٍ تحل مشاكلي النظرية والعملية التي تواجهني، أم هو الذي يسوقني إلى أعماق نفسي فأعيها وأتدبرها وأعيش ما يخالجها من حالات نفسية؟

هل هو الذي يرفع عني الغموض الذي يخيِّم على مستقبلي حيث يستريح عقلي وتطمئن نفسي، أم هو الذي يمدني بحكمة البدء قبل كل شيء، بمعرفة حقيقة وجودي وبإمكانيات إثباتها من خلال ما أصنع وما أفعل؟

للردّ على هذه التساؤلات، يجدر بنا الوقوف على الأسس الفكرية والمنطقية التي يرتكز عليها كل من المذهبين : البراغماتي والوجودي.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

1 . المذهب البراغماتي : الأسس الفكرية والمنطقية

يقوم المذهب البراغماتي (الذرائعي) على ركيزتين أساسيتين:

أ : **رفض الفلسفات التقليدية** النظرية والمجردة لأنّها لا تخدم انشغالات الإنسان ولا تحلّ مشاكل حياته اليومية في عصرٍ تَنشَط فيه الصناعةُ وتزدهر فيه الحركة الاقتصادية.

ب : **تأسيس منهجٍ** جديد أو فلسفة عملية إجرائية.

ألاَ **تُلاحِظ** ؛ أيّها المتعلّم ؛ أنّ كلَّ الفلسفات الجديدة تنطلق من عدم كفاية الفلسفات السابقة عن الإحاطة ببعض القضايا والإجابة عن بعض التساؤلات، وهذا ما يدفع بالفلاسفة إلى البحث عن نسق جديد يحاولون من خلاله تقديم إجابات وحلول لها ؟

ثانيا : ما هي القواعد التي ساعدت على تأسيس فلسفة عملية ؟

1 . نشوء المذهب

نشأ المذهب البراغماتي(الذرائعي) في أمْريكا مطلعَ القرن العشرين على يدِ ثلاثةٍ من أعلام المفكرين:" تشارلز بيرسC . Peirce" (1839-1914) و"وليم جيمس W. James"(1842-1910) و"جون ديويJ . DEWEY" (1859 - 1952). وقرَّر، بحكم منشئه في هذا المحيط المتصنِّع، استنكارَ ورفضَ الفلسفة التقليدية، و**السعيَ إلى بناء منهجٍ عصريٍّ يُساير حاجات الناس المتجددة**، وتقلبات رغباتهم اليومية؛ وهو **منهجٌ يدعو إلى التحوّل من " الفكر للفكر" نحو" الفكر للعملّ**.

جميع الحقوق محفوظة ©

2 . تعريف المذهب

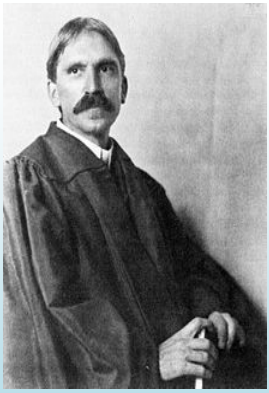

جون ديوي1859 – 1952

البراغماتية أو الذرائعية[1] مذهب "فلسفي" يجعل **من كلّ فكرة أو منطلق أو مسلمةٍ ذريعةً و وسيلة لتحقيق غايات عملية تعود بالنفع على الإنسان بالمفرد أو على الناس بالجمع**.ومهما كانت طبيعة هذا المنطلق الذي نأخذ به . حسيةً كانت أو عقلية أو ميتافيزيقية . فإن المهم **أن نحقق بواسطته مطالبَ عملية فعلية**. ولفظ "براغمَه" (Pragma) باليونانية يعني العمل والمزاولة؛ أدرجه " **بيرس** Peirce "سنة (1878) في كتابه "كيف نجعل أفكارَنا واضحة". **وكل موضوع هو مجرد وسيلة لتحقيق أغراض الإنسان النظرية منها والعملية**[2]. والحياة كلّها عند "جون ديوي"[3]، **هي توافُقٌ بين الفرد وبيئته**. فإذا كانت الحقيقة هي القيمة الفورية للفكر ، فعوضا أن نتساءل عن مصدر الفكرة ومن أين جاءت أو استمدت أو ما هي مقدماتها، فإن "البراجماتزم" تفحص نتائجها. وهي تبتعد عن كُنْهِ الشيء ومصدره، وتتجه إلى نتيجة الشيء وثمرته وعقباه. فعوضا أن نتساءل عن ما هو الشيء

---

[1] . أو البراغماتزم (Le pragmatisme)، ويستخدم "ديوي" مصطلح الأداتية Instrumentalisme. " المعرفة العقلية آلة و وظيفة في خدمة مطالب الحياة ".

[2] . وليم جيمس، البراغماتية، الترجمة العربية، محمد علي العريان، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965، ص: (64-65) استأنس أيضا، بـ توفيق الطويل، أسس الفلسفة، ط. 5، ص: 65.

[3] . من أهم كتبه: " المدرسة و المجتمع " و " الديمقراطية و المجتمع " و " المنطق و نظرية البحث " .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ونضيع أنفسنا ونضل في البحث عن كنهه وماهيته أو حقيقته أو نتساءل عن أصله، فإن "البراجماتزم" تتساءل عن نتائج الشيء وبذلك **تحوّل وجه الفكر إلى العمل والمستقبل**[1] .

أ . العبرة بالنتائج

إن أول **مقياس** يؤسس عليه الذرائعيون **قيمةَ** أيِّ فرض من الفروض أو فكرة من الأفكار أو منطلَقٍ من المنطلقات، هو **تحقيق منفعة عملية**. وكل فكرة لا تحمل في طياتها مشروعا قابلا لإنتاج آثارٍ **عملية نفعية، تُعتبر خرافةً**، شأنُها شأنُ الكلام الفارغ. ، **ففكرة القلم** تشير إلى ما يمكن أن يقدّمه لي من **منافع عملية**، لذلك رفض" بيرس" في البداية كل الأفكار الميتافيزيقية واللاهوتية، لكنه تراجع وقبِلَها فيما بعد ولكن **بشرط أن تكون ذاتَ قابلية لبلوغ منفعة** . عملية أو روحية. ومن ذلك مثلا، فإنهم يعتبرون المعتقد الديني **صادقا** وحقيقيا، طالما ترتَّبت عليه آثارٌ **ونتائجُ عملية** في حياتنا اليومية؛ وهذا يعني أن **صدق المعتقد وصدق المعنى مرهونان بآثارهما العملية**[2]. لقد كان "فرديناند شيلر"[3] يتسامح في قبول كلِّ مسلَّمة . ولو كانت ميتافيزيقية . **متى أمكن الإفادةُ منها في الحياة الدنيا**، (ومتى قصدت أيضا، إلى تحرير العقل من قيود العرف وجمود التقليد وطغيان السلطة). مثال ذلك أنّنا نبحث دائما عن مبررات ودوافع العمل.

---

[1] . قصة الفلسفة لـ "ول ديورانت" ترجمة الدكتور فتح الله المشعشع، مكتبة المعارف بيروت، ص 377.

[2] . وليم جيمس، البراغماتية، ، نفس المصدر السابق، ص . (239-241).

[3] . (Ferdinand Schiller 1864-1937).

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ومن ذلك أيضا، أن البراغماتيين يَقبَلون كلَّ التيارات : يقبلون التفكير المنطقي، وكذا نشاط الحواس؛ ويوافقون على الأخذ في حُسبانهم أبسط التجارب، وأخصَّها. وحتى التجارب الصوفية يقبلونها **إذا ما ترتّبت عنها نتائج عملية**. ومن هنا، نفهم كيف استحالت الفلسفة على يدهم، إلى **منهج لاختبار فاعلية الأحاسيس والأفكار في الحياة؛ وكيف انصرف التفكير معهم من المبادئ والأسس إلى النتائج والغايات**.

ويؤكد " بيرس" في كتابه "كيف نوضح أفكارنا لأنفسنا"؟ أن **كلّ فكرة (أو اعتقاد) لا تنتهي إلى سلوك عملي في دنيا الواقع، تعتبر فكرة باطلة؛ وأن العبرة في ذلك، هي العمل المُنتِج** بدلا من التخمينات الفارغة؛ وفي هذا العمل بالذات، **نقرأ الصدق والحق**[1]. ومقياس هذا الصدق أو الحق في رأي " شيلر"، لا يقوم في مطابقته لموضوعاته، **بل في مدى ما يحققه من نتائج للبشرية**، وليس ثمة حق يقوم بمعزِل عن هذه البشرية. وما يحققه من نتائج عملية، لا يمكن إلاّ أن يكون ناجحا. ويعلق "إد لوروا" على مفهوم البراغماتية بقوله : " أعتقد فقط، سواء في النظام العلمي أم في النظام الأخلاقي، إنّ إحدى علامات الفكرة الصحيحة هي خصوبتها، قابليتها لـ «الأداء» لـ « العمل» بفعالية، وأعتقد أنّ هذه القابلية لا تتجلى إلاّ بالتجربة" .

ب . العبرة بالنتائج الناجحة

ويتمثل النجاح في التوافق بين مستقبل الوقائع ورغبات الإنسان وأمانِيه. وفي حالة الإخفاق، يظل المستقبل غامضا حيث يتعين على الفرد العيش

---

[1] . عن توفيق الطويل، نفس المصدر السابق ، ص . 65.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

في قلق وكآبة واضطراب عقلي. ولهذا، فإن المنهج الصحيح هو ذلك الذي يحدد الآفاق المستقبلية التي يتحقق فيها التناغمُ الفعلي بين تطلعات الأفراد وأحلامهم. إنّه الوصول إلى حلول لمشكلاتٍ نظرية لا عن طريق تحليلها تحليلا نظريا أو عن طريق افتراض فروض قَبْلية مستقلة عن التجربة، بل **يكون حل المشكلات بمتابعة آثارها الملموسة ونتائجها الحِسِّية** بحيث إن لم يكن للمشكلة نتيجةٌ من هذا القبيل أو أن يكون لحلها أثرٌ نافع في الحياة، كانت المشكلة باطلة. يقول " **وليام جيمس**": "إن آية الحق النجاح، وآية الباطل الإخفاق[1]" ويضيف أيضا: "**الفكرة الصادقة هي تلك التي تؤدي بنا إلى النجاح في الحياة**[2] ".

ج . المرونة والمراجعة المستمرة

لا يوجد فرض أصدقُ من فرض آخر، ولا فكرة أحق من فكرة أخرى، إذ أن الصدق الوحيد هو الواقع المتقلب نفسه. وما يبرّر ذلك، أن التجربة هي في تجدد مستمر، وحركة دائمة. ولكي يكون نشاطٌ معرفيٌّ نشاطا يستحق أن نصفه بالصدق، يلزم أن يوفِّق بين معارفنا القديمة والتجارب الجديدة ؛ **فالصدق هو صدق بالنسبة إلى الواقع** الذي ليس سكونيا ولا ثابتا على حال.

د . الصدق صدق لأنه نافع

وفي هذه النقطة، يصرح "جيمس" بقوله : " إني اَستخدم **البراغماتية** بمعنى أوسع، أعني أنها **نظرية خاصة في الصدق**"[3]، والمعروف أن مبحث الصدق هو أحد المباحث الأساسية لنظرية المعرفة. ويؤكد بأن **الصدق والمنفعة**

---

[1] . وليم جيمس، المصدر السابق ، ص . : 237.

[2] . وليم جيمس، المصدر السابق ، ص . : (352-353).

[3] . راجع وليم جيمس، ن.م.، مفهوم البراغماتية للحقيقة.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

صفتان مترادفتان للفكرة : " أُسمِّي الفكرة صادقة، حين أبدأ بتحقيقها تحقيقا تجريبيا؛ فإذا ما انتهيتُ من التحقيق وتأكدتُ من سلامة الفكرة، سميتها **نافعة**[1]،

ويضيف قائلا : " إن هذه الآثار التي تنتهي إليها الفكرة، هي الدليل على صدقها أوهي مقياس صوابها"[2]، و" **أن التفكير هو أولا وآخرا ودائما، من أجل العمل**"، و" **تصوُّرَنا لأيّ شيء ندركه بالحدس، ليس في الواقع إلاّ أداةً نحقِّق بها غايةً ما**"، **وأن أساسَ التفكيرِ هو ما يواجهه الفرد من مشكلاتٍ**.

ولهذا، فإن الفكرة تستمد صدقها بواسطة الأحداث. إنّه لَمن العبث مثلا، أن يوجد تطاحن بين النظريات المضادة وأن يستغرق الباحثين الجدلُ في (أيُّهما حق وأيُّهما باطل؟)؛ فالنزاع بين الماديين والروحيين عبث ومضيعة للوقت، فهو لن ينتهي إلى نتيجة تؤثر في سلوكنا العملي، ولكنَّ النظر إلى مستقبل العالم، يرجِّح كفة المذهب الروحي، **لأنه يملأ الإنسان أملا**، ويثير في نفسه **التفاؤل**، ويمكِّنه من احتمال متاعب الحياة. وهنا، يجتمع الصدق والنفع، أو بتعبير أدق، **ليس الصدق صدقا إلاّ لأنه نافع، وليس نافعا إلاّ لأنه وسيلة تستجيب للواقع المشخص للإنسان**[3].

ويدعم "ديوي" هذا الموقف، بتأكيده أن **الفكر ليس إلا ذريعة** لخدمة الحياة ؛ ويطالب بتطبيق المنهج العلمي في شتى مجالات التفكير، وهو منهج

---

[1] . وليم جيمس، ن.م.، ص: (352-353).

[2] . إن الأطروحات الجامعية تفقد معناها إن لم تتحول إلى عمل نافع؛ وهذا معروف منذ العشرات من السنين في الجامعات الغربية وخاصة منها الأمريكية حيث لا قيمة لبحث إن لم يتحول إلى تطبيق أو لا يرتجى منه خير.

[3] . وليم جيمس، نفس السابق . ص: (240-241).

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

يصطحبه الباحث في الخروج من نطاق الفكر إلى نطاق العمل. وبهذا، يظل مخزونُ الفكر اقتراحا لحلّ مشكلة، فإن وُفِّقت إلى حله، كانت صوابا[1]. وإذا كان هذا المخزون نظريةً، فإنها تصبح أداة للبحث بدلا من إجابة عن لغز وبالتالي تنتهي من كل بحث. فهي لا تصلح لنا من أجل أن نستريح، وإنّما من أجل أن نندفع إلى الأمام، لنُعيد بناء العالم من جديد، ونُنعش أفكارنا البالية[2] وأمام هذا المخزون المتحجّر، **فإنّ البراغماتية تمنح أفكارنا مرونة غير مسبوقة وتجعلها تتحرك**. فبينما نكون قد امتلكنا مجموعة من المعارف، فإذا بتجربة جديدة طارئة تضفي عليها بعض الاضطراب : فهذا شخص مثلا يناقضها، أو نحن بأنفسنا نكتشف في فترة تأمّل، بأنها متناقضة، أو يبلغنا أن هناك ظواهر تتوافق معها، أو تطرأ فينا رغبات لم تعُدْ تحقِّقُها. وهنا، يتولد انزعاجٌ لم يَعْهَدْه تفكيرنا. و للخروج منه، فلا عيب في أن نغير أفكارنا السالفة.

ومن المفيد هنا، أن نُذكِّر بأن الصدق ليس في مجرد المطابقة، وإنما في إثراء العالم الموجود وإمداده بالجديد. أمّا **الصدق** في ذاته، كمّا تذهب إليه الفلسفات التقليدية، **فلفظٌ أجوفُ لا يحمل معنًى**. فهو ليس مجرد صفة عينية تقوم في طبيعة الفكرة أو المعتقد، كما يزعم أنصار **النزعة الصورية** من الفلاسفة، ولا هو حق بصرف النظر عن ظروفه، كما هو لدى **العقلانيين**؛ إنّه كالسلعة، قيمتُها تقدَّر بثمنها الذي يُدفع فيها فعلا في السوق. ومع ذلك، فإنّ الإنسان ليس مصدر الحكم على الأشياء بالصدق أو الكذب. "**إن كل ما يرشدنا إلى الحق** . فيما يقول "ديوي" . **فهو حق**".

---

[1] . عن توفيق الطويل، نفس المصدر السابق . ص: (66-67)

[2] . (Recycler ses idées pour s'aligner sur de nouvelles données) .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

إن الوقائع المادية والعلاقات فيما بينها، ليست في حد ذاتها صادقة ولا كاذبة، وإنّما هي أشياء موجودة فحسب. إنها خرساء، ونحن الذين نكتشف قيمتَها من خلال **تجلّياتها النفعية**، فنَصِفها بالصدق أو بالكذب. ولهذا، **فإنّ المصدر الوحيد للمعرفة الصحيحة هو الواقع**؛ إلاّ أن هذا الواقع لا يرضى لنفسه السكونَ المطلق ولا الانغلاق عن طبيعة رغباتنا المتقلبة. إنه واقع خاضع لنا؛ أي أنه ليِّنٌ مَرِنٌ قابلٌ للتشكيل والتعديل. وتوضيحا لهذه العلاقة بين الصدق والأغراض النفعية، يضرب "وليام جيمس" المثال الآتي: يمكنك أن تعتبر العدد 27 مكعب العدد3 أو حاصل ضرب (3×9) أو حاصل جمع (26+1) أو باقي طرح 73 من 100 أو بطرقٍ لا نهاية لها؛ و**كلها صادقة**. إنّنا نضيف إلى العالم من صنعنا؛ وكل إضافة هي مطابِقة له وليست واحدة من هذه الإضافات بخاطئة[1].

وباختصار؛ أخي الطالب؛ إن النَّسَق الذي تبنَّاه المذهبُ البراغماتي واضحُ المعالم؛ فهو ينطلق من الواقع ومتطلباته الآنية؛ وهذه وضعيةٌ مُشكِلة تدفع الإنسان على ضوئها، إلى اختبار عددٍ من الممكنات؛ فإنِ اسْتجاب أحدها للمتطلبات التي يُفرزها الواقعُ المشخَّص، كان هذا الممكن نافعا ومن ثمة، كان هو الأصدق والأحق في هذا السياق. والإنسان إن هو انطلق من فكرةٍ ما، فليس بغرض اتخاذها كمبدأ مطلق يتحكم في حياته الفكرية أو يقيم عليه فلسفة مغلوقة، وإنّما من أجل التحقُّق من مدى استجابتها مع حاجاتنا الطارئة وتوافُقها مع حياتنا المعيشة.

[1] . وليام جيمس، نفس المصدر السابق . ص: 294.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

II . المذهب الوجودي : الأسس الفكرية والمنطقية للمذهب الوجودي

جون بول سارتر وسيمون دي بوفوار

يشكو الإنسان المعاصر من **الاغتراب**[1]. فما أن يأتي إلى العالَم حتى تتنازعه قوى ضخمة تتمثل في المعارف والقيم الموروثة وفي مشاغل الحياة اليومية. وهذه القوى تعمل بالتدريج على شلِّ قدرته على إنشاء نفسه و تسلُبه حريتَه وتسير به في دروب الانقياد والاستسلام. ولهذا جاءت الفلسفة كأسلوب تفكير يحرّر الشعور الإنساني من عملية الاغتراب المستمرة، ويضع بدل الانقياد والخضوع **مخطط سلوك مبدع**[2]، ومن الفلسفات الرائدة في هذا المجال نذكر الفلسفة **الوجودية أو المذهب الوجودي**.

---

[1] . وهو عند " ماركس " فقدان الإنسان لحريته واستقلاله الذاتي بتأثير الأسباب الاقتصادية أو الاجتماعية و يصبح ملكا لغيره أو عبدا للأشياء المادية.

[2] . طرائق تدريس الفلسفة والتربية، د صالحة سنقر ود .ملكة أبيض. مطبعة خالد بن الوليد . دمشق 1985/1986 ، ص . 33.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

والمنطلقات[1] التي يأخذ بها الوجوديون لتقريب مختلف وجهاتهم الفلسفية، تكمن في **أربعة تساؤلات** :

أولا : هل الطبيعة التي يتصف بها **وجود الأشياء** تشبه طبيعة **وجود الإنسان؟**

ثانيا : أليس بإمكان الإنسان **التمرد على نظام الأشياء؟**

ثالثا : وهل المعرفة الحقيقية تأتي من عالم الأشياء أو من العالم الداخلي للإنسان؟

رابعا : هل يرتجى من كون الإنسان إنسانا، الحصول على السعادة أو الارتماء في المخاطرة وما يترتب عنها من قلق وشؤم؟

وإجابات الفلاسفة الوجوديين عن هذه التساؤلات هي التي **تحدِّد نسقهم الفلسفي.**

لكن قبل ذلك تابع معي ؛ أخي الطالب ؛ هذا المقطع من مسرحية "الذباب" لـ "جون بول سارتر" التي ألّفها انطلاقا من أسطورة يونانية قديمة وكيّفها

---

[1] . وهم فرقتان: المؤمنة والملحدة؛ **الأولى** تشدّ نفسها إلى عقيدة، هي تقول بالمشاركة والمحبة؛ وتضم "سورين كيركجورد" الدانمركي (ت.1855) و "غابرييل مارسيل" (ت.1973) و"لويس لافيل" و "كارل ياسبيرس" (ت.1960)؛ و**الثانية** ترى بأن الوجود مأساة جاثمة لا معنى لها، والغير هو مصدر عذاب الذات، وأنه ليس ثمة ذات مفردة معطاة وحدها بل كل ذات تفترض بطبعها، الغير الذي تساكنه ونوجد معه؛ وهذا الغير يستولي على وجود الذات بما يفرضه عليها من أحوال وأوضاع؛ وينضوي تحتها "هيدجور" (ت.1976) و"سارتر" (ت.1980) و"ألبير كامو" (ت. 1960) و"سيمون دي بوفوار" (1908– 1986) و"جورج باطاي"(ت. 1962). وكلتاهما تعترف بـ "كيركجورد" بوصفه الأب الروحي للوجودية بكل توجهاتها. انظر للتفصيل، محمد غلاب : الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة، ص : (10– 13).

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

لتؤدي الغرض وهو التعبير عن الفلسفة الوجودية كما أسّس لها سارتر وكثيرٌ من الفلاسفة الوجوديين :

[**أورست**[1] : إني حرّ يا إلكترا[2]، هاهي الحرية **تنقضّ** عليّ كما تنقضّ الصاعقة. ...

وتبلغ المسرحية ذروتها في هذا المشهد الذي يقع قرب النهاية، والذي يدور بين البطل الوجودي « **أورست**» وبين **جوبيتر**

أورست : إن كونك كلَّه لا يكفي لكي يُشعرني بالخطأ. أنت ملك الآلهة ياجوبيتر، ملك الحجارة، والنجوم، وأمواج البحر، ولكنك لست ملكا على الإنسان.

جوبيتر« كبير الآلهة» : لست ملكا عليك أنت أيّها الحشرة الدنيئة الوقحة، فمن الذي خلقك إذن ؟

أورست : أنت الذي خلقتني، ولكن كان يجب ألاّ تخلقني حرّا.

جوبيتر : إنمّا وهبتك **الحرية** لتخدمني.

أورست : قد يكون هذا صحيحا، ولكن هذه الحرية قد انقلبت ضدّك، فلا أنا ولا أنت نستطيع أن نغيّر شيئا.

جوبيتر : وأخيرا هذا هو العذر.

أورست : أنا لا أعتذر.

جوبيتر : وهل هذا صحيح ؟ أتعرف أن هذه الحرية التي تدّعي أنّك **عبد** لها تكاد أن تكون اعتذارا.

---

[1] . بطل مسرحية "الذباب" لـ " جون بول سارتر".

[2] . أخت "أورستّ" ، راجع أسطورة "أوديب" في الفلسفة اليونانية.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

أورست : لستُ السيد ولا العبد .. وإنّما **أنا الحرية**، ما أن خلقتَني حتى خرجت عليك، ولم يعدْ لك عليّ سلطان.

"وما أن يفرغ « **أورست** » من كلامه، حتى يسارع إلى مواجهة الجماهير في جرأة وشجاعة، هاتفا بأنهم في حِلّ من كلِّ **الالتزامات** التي **فُرضت** عليهم جزاء جرمهم، وبأنّه وحده **سيحمل** عن المدينة كلِّها **خطيئة قتل والده الملك** ".

وبعد أن يعفي « **أورست**» الناس من هذا الإثم ليضعه على كاهله هو، يتلاشى الندم ويموت الذباب. لأن حياةً جديدةً أشرقت على الضفة الأخرى من النهر، وعلى الجانب الآخر من الجبال : « وداعا أيّها الناس وحاولوا أن تحيوا، فكلّ ما هنا جديد، وكلّ شيء قد بدأ منذ اليوم فحسب، وحياتي أيضا قد بدأت، ويا لها من حياة غريبة [1]] .

إن نظرة واحدة إلى ما تعانيه الإنسانية من ذعر وفزع، ثم نظرة أخرى إلى محنة الإنسان ومحنة الحضارة، ثم نظرة ثالثة وأخيرة إلى عِظم مسؤوليتنا نحن أبناء هذا العصر إزاء الماساة الإنسانية الكبرى تجعلنا نحس بجدية هذا الكلام ... ، لقد قدّمت لنا الفلسفة الوجودية مفاهيم جديدة (الحرية، المسؤولية، أسبقية الوجود عن الماهية، الموقف، الاختيار، الوجود في ذاته والوجود لذاته، القلق والغثيان ...) ورؤيةً جديدة للوضع الإنساني ستتعرّف عليه ؛أخي الطالب؛ من خلال دراستك لمواقف وآراء بعض الفلاسفة الوجوديين.

---

[1] . (من" الوجودية إلى العبث، مسرحيتان ودراستان"، ترجمة وتقديم جلال العشري؛ ص 19 وما بعدها ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب 1977).

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

إن هذه الاستفهامات لا يطرحها الوجوديون لمجرد طرحها. إنّها من الأصداء التي أفرزتها الظروفُ المزرية التي انتهى إليها **مصير أوروبا** وغيرِها وخاصة **بعد الحرب العالمية الثانية**. ولم تمر هذه **الأوضاع اللاإنسانية** دون أن تؤثر عالميا في مشاعر الناس وتفكيرهم، وتدفعَهم إلى التساؤل عن حقيقة **الوجود الإنساني وطبيعة علاقته مع عالم الآخرين وعالم الأشياء**، فالفلسفة الوجودية مذهب إنساني يريد أن يعيد الاعتبار للإنسان من حيث أنّه إنسان ويعبّر عن انشغالاته ومعاناته في عالم حاول أن يجرّده من كل قيَمِه الذاتية، لذلك نجد أن الوجودية اتخذت مواقف متباينة منها " المعتدلة " ومنها "المتطرفة"، إن صحّ هذا القول، في مجال الرد عن هذه التساؤلات.

أولا : هل الطبيعة التي يتصف بها وجود الأشياء تشبه طبيعة وجود الإنسان ؟

هل الأشياء التي أراها في العالم الخارجي هي من نفس الطبيعة التي أنتمي إليها، وهل أنا جزء من نظام الأشياء؟ هل عالم الأشياء هو حقيقةً العالم الذي يناسبني؟ فعندما أقول "الشجرة موجودة "و" أنا موجود" فهل يعني ذلك أننا نشترك في نفس الوجود ؟ أليس الوجودُ[1] وجوديْن : **وجودَ الأشياء** و **وجودي أنا**، وجودَ الظواهر الجامدة و وجودَ ذاتي المتغيرة ؟

للردّ على هذه التساؤلات، يجب التصريح **بأن الوجودَ وجودان: وجودٌ في ذاته** L'Être en-soi و **وجودٌ لذات** l'Être pour-soi .

[1] . الوجود Existence ؛ والوجودية أو المذهب الوجودي Existentialisme .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

1 . **الوجود في ذاته (وجود الأشياء) :**

وهو يمثل **عالم الأشياء**، وهذه الأشياءُ هي ظواهرُ خارجيةٌ قابلة للدراسة العلمية تخضع لتجربة ويفهمها العقلُ، وهي موضوعات **ثابتة** في ماهيتها، لأنها **تستجيب لنظام مُطَّرد من قوانين** الكون، أستطيع أن **أحدِّد ماهيتَها الثابتة** وخصائصها وأتصور وجودها بكل أبعاده. فالكتاب هو الكتاب، والقلم هو القلم ... .

2 . **الوجود لذاته (وجود الإنسان) :**

والمقصود به هو **الوجود الإنساني** الذي يشعر به كلّ واحد منّا في عالمه الداخلي. ومن مميّزاته أنه ليس وضعا نهائيا ولا ساكنا، وإنّما هو **تجاوزٌ مستمر لما هو عليه كلّ واحدٍ منّا.**

ماذا تستنتج ؛ أيّها الطالب؛ من كلّ ما سبق؟

أستنتج أن **وجود الإنسان**، كما يرى الوجوديون،هو **المشكلة الأساسية الأولى في الفلسفة، وهومُلْهِمُ كتاباتهم الأدبية والفكرية**[1]؛ وبأن الفلسفة ذاتَها لَتُخطئ خطأً جسيما، عندما تمنح الأولوية للفكرالنظري المجرَّد أو لشرح العالم وتعليله. **إنّ الإنسان في بحثه عن الشعور بالطمأنينة والسكينة، أعرَض عن التأمل المجرد والبحث في العالم الخارجي** ليتجه نحو التفكير في ذاته وتبطُّنها. وفي هذا السياق، يقول "سارتر" : " إن الأشجار والأحجار هي مجرد كائنات، وأن الإنسان في هذا العالم هو وحده الذي يُوجَدُ "لذاته" أي يمتلك **وِجْدانا** ".

[1] . راجع الحوار الوارد في بداية المشكلة.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ثانيا : أليس بإمكان الإنسان التمرُّدُ على نظام الأشياء؟

وهل **الإنسان مشروع** أو موضوع ؛ أي هل ما **سأكونه هو سابق لوجودي**، أم العكس أي **وجودي سابق لماهيتي؟** هل أنا أُقرِّر مصيري أم أن مصيري يتقرر قبل أن أُوجَدَ؟ أليس بإمكاني أن أتمرّد عن النظام الذي تخضع له الأشياء ؟ هل أستمدُّ ماهيتي من ذاتي أم ممّا هو خارج عنها ؟ متى أكون وجودا لذاته ؟

يتضمن الجواب نقطتين محوريتين :

1 . التمرد على القول بأن الماهية سابقة للوجود

من المعروف أن الوجودية تُعتبر ثورةً عنيفة ضد الفلسفات التقليدية، وخاصة منها الحركة العقلية والمثالية التي بدأت في عهد "ديكارت"، وانتهت عند "هيجل". **وذلك لأن** هذه الفلسفات :

أ . افتقدت الإنسان الواقعي المشخَّصَ : إن الإنسان في هذه الفلسفات **مجرد مفهوم فارغ من كل تعيين وتحديد**؛ وظهرت صيغُها في هذا الصدد، صيغا عقلية جوفاءَ **لا تربطها بِدُنْيَا الواقع رابطةٌ**؛ وكأنها تدعو إلى صبِّ جميع الناس في قوالبَ معينةً تذوب فيها العواطفُ والاعتقادات وأساليب الحياة ومناهج التفكير؛ وهي **قوالب تنحصر في معنىً مجردٍ وكلّي صالح لكل الأزمان**[1]، على الرغم من أن الإنسان في الحقيقة وكما يقول "كيركجورد"، **فرد فريد** لا يمكن تكرارُه، ولا يوضَع تحت معنىً أعمَّ؛ ومن هنا، ينحصر في معنىً مجردٍ و لا توجد ماهية مشتركة يمكن أن يشترك فيها جميع الناس.

---

[1] . لقد فهم "هيجل" العالم عن طريق العقل إلى أقصى درجة ممكنة، فسحق كل الخصوصيات الوجودية التي يتفرد بها الوعي.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ب . وأضّرت هذه الفلسفات بفهم **حقيقة الإنسان التي تتمثل في حضور الشعور ودوامه** ؛ إن أبغض شيء إلى الفلسفة والأدب[1] البعدُ عن دائرة الوجود الحق **وجود الذات**، ولا يمكن أن يتساوى عندهما وجودُ الإنسان الفرد ووجود الأشياء. ولهذا، نلاحظ كيف تَنفُر الوجودية من العلم **وتتهمه بأشنع الاتهامات، كالتعميم والتشييء Chosification**. وتستعيض عنه بالأسلوب الأدبي [2].

ج . وجعلت هذه الفلسفات **الأشياءَ الخارجية مستقلة عن الذات العارفة؛ واعتبرتها مصدر الحقيقة**، كما هو واضح لدى الواقعيين والوضعيين بوجه أخص.

د . وتنظر إلى **الوجود باعتباره لاحقا للماهية، وليس سابقا لها**؛ وفَاتَها أن هذه القاعدةَ تنطبق على الأشياء لا على الإنسان. فبذرة البرتقال مثلا، لا تعطينا تِينًا ولا تفاحا، فهي شجرة لا حول لها ولا قوة سوى أن تستجيب لحتميتها، وهي أن تكون شجرة للبرتقال وهي ماهيتها. أما الإنسان، كما سيتأكد لنا لاحقا، فهو **وجودٌ (مشروع) يتولىَّ تحديدَ ماهيته بنفسه**.

---

[1] . لأن الفلسفة الوجودية خارج أدبياتها، لا تستطيع أن تكون وفيّة لرسالتها.

[2] . وهو أسلوب أبلغ للتعبير عن معاناة الإنسان، كالرواية والمسرحية.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

أستنتِج وأسجّل :

رفضت الفلسفة الوجودية كثيراً من الفلسفات التقليدية التي كانت تنظر إلى الإنسان نظرتها إلى أيّ شيء آخر موجود في الطبيعة، كما تُخضع مفهومه لمقولات الفكر والمنطق والعلم، يمكن تعريف الإنسان و تحديد ماهيته كما نصنع ذلك مع أي موضوع من موضوعات الفكر أو العالم الخارجي؛ أي أن الإنسان موضوع يقبل المحمولات من أجناس وأنواع[1]. فالفلسفة الوجودية ترفض، باختصارأن تكون ماهية الإنسان ثابتة ومحدّدة مسبقا. فالإنسان يوجد أولاً وهو المسؤول عن تحقيق ماهيته ثانيًا".

2 . **إثبات** القول بأن **الوجود سابق للماهية**، والتمرّد على نظام الأشياء

أ . **الوجود أوَّلاً**

عرفت؛ أخي الطالب؛ **أن أهم مشكلة في الفلسفة الوجودية، هي مشكلة الوجود الإنساني، وهذا ما يبرّر انتقالها من دراسة الوجود المجرّد (النظري)**، إلى **دراسة الإنسان المشخَّص في وجوده الواقعي**، وفي مواقفه الواقعية التي تربطه بزمانه ومكانه وظروفه وأحواله. ولماذا يجب أن يبحث الفيلسوف عن المعرفة الصحيحة في **أعماق نفسه**؛ ، لذلك يمكن القول مع "سارتر" على لسان المتكلم: "أنا أفكر، فأنا إذن كنت موجودا" ؛ أي الوجود أولا، والتفكير أو العمل ثانيا... فأنا (الموضوع) لست هذا **المحمول أو ذاك** ؛ فلي أن أكون. وفي ما

---

[1] . تعريف الشيء، في المنطق الصوري، هو ذكر خصائصه، فالمعرّف هو الموضوع و الخصائص هي المحمولات التي تُلحق به، كقولنا : الإنسان حيوان عاقل.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

يشبه هذا السياق، يقول "سارتر" كذلك : "سأكون عندما لا أكون" ؛ أي سأكون، **ما سأكون قد أنجزته** إلى حلول الموت ؛ أي **المشروع الذي حاولت أن أحققه** .

وهنا ندرك أن" كوني موجودا "يعني أني كائن يفعل ويتمثل فيما يفعل وينجز. فأنا أُفرغ ذاتي (وكياني) بأكملها في العمل؛ فأنا ما أفعله و ما أحقّقه.

ومعنى هذا، أن وجودي يقوم في بداية الأمر، بغير ماهية ؛ مجرد مشروع ؛ وأكون عند ولادتي ناقص الصورة، لأني الكائن الوحيد الذي يكمن وجوده، في حريته، على عكس الحال مع سائر الكائنات. **إن حريتي في اختيار موقف دون آخر، تجعل من المستحيل التنبؤُ باختياري مقدَّمًا، ومن ثمة، أبقى الكائنَ الوحيد الذي أحدّد ماهيتي، وأكون ما أشاء** .

ب . التمرّد على نظام الأشياء

ولكي أحدّد ماهيَّتي، وجب **أنْ اَختار**، ولكي اَختار وجب أن أكون موجودا؛ ولأنني متمرِّد على طبيعة الأشياء، ولأنني مشروع لا موضوعٌ، فأنا لا أتوقف عن الاختيار، ولا عن تحمل المسؤولية بكلّ أبعادها. والشيء الذي يقف حجَرَ عَثْرَةٍ أمام محاولات تعريفٍ ثابت

للإنسان، هو **مصيرُه و تحقيقه الذاتي المتغير**، وهنا يحذّر الوجوديون من **التعريف الجامع المانع له**[1]،لأن كل إنسان هو ما ينتهي إلى صناعته؛ ولهذا، فتعريفه يستمرّ ناقصا غيرَ مكتمِل قبل نهاية حياته؛ فالقول بأن الإنسان هو ثلاث نقاط (أي هوكذا وكذا ...) أو نقطة استفهام (ماذا؟)، لَتَعْريفٌ يعوِّض نقصَه المحمولُ

[1]. بمعنى أنّه لا توجد طبيعة إنسانية ثابتة ولا خصائص مشتركة، إلاّ كون الإنسان حرّا.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

عند انتهاء الحياة. والمقصود بالمحمول **الماهيةُ** التي كان يسعى إلى تحقيقها إلى يوم الرحيل، **فالإنسان مشروع ناقص**، غيرقابلٍ للتحقيق أبدًا.

نستنتج من كل هذا : أن الفلسفة الوجودية، بعد أن رفضت الفلسفات التقليدية، حاولت أن تؤسِّس لفلسفتها الخاصة وتدافع عن أفكارها الخاصة منها على وجه الخصوص : فكرة الماهية سابقة للوجود؛ أي أن الإنسان هو الموجود الوحيد الذي يحدّد ماهيته انطلاقا من مشروعه الخاص والذي لن يكتمل أبدا، وبالتالي فإن ماهيته ستظل ناقصة ولا يمكن الإحاطة بها، كما هو الحال في موضوعات العلوم المختلفة.

ثالثا : وهل المعرفة الحقيقية تأتي من عالم الأشياء أو من العالم الداخلي للإنسان ؟

وهل الأداة التي أُدرك بها الأشياء، هي نفسُها التي أعرف بها ذاتي؟ أين المعرفة الصحيحة: فهل هي التي تنبُع من أعماقي أم هي التي تجيئُني من عالَم الأشياء؟ هل هي التي تجعلني أحيا الوجودَ أم هي التي تجعلني أسعى إلى مجرد التفكير في الوجود؟

أيهما الحقيقة، التفكير في وجود العالم الخارجي أو استبطان ذاتي لذاتها والعيش معها؟

1 . الشعور أو الحدس هو الوسيلة التي تُناسِبُني

وإذا كان العقل لا يستطيع أن يتقدم في هذا السبيل لينبئنا عن شيء، أو ليقرِّرَ أمرا، **فلا مناصَّ من استعمال الشعور**؛ فهو وحده الذي يعتمد على

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

تبليغنا أشياء، كثيرا ما نفتقدها بين المجالات الوجدانية. فهو قادر على الاستمرار، حيثما تنقطع سلسلة الاستدلالات العقلية والمقارنة الفلسفية الخالصة.

وإذا **كان العقلانيون يقدِّسون العقل**، ويضعونه فوق كلّ اعتبار، فإن الوجوديين يضعون الوجود وما يستدعيه من شعور باطني وانفعالي، فوق كل حقيقة. يقول "كيركجورد" : "إن النتائج التي تنتهي إليها المحنة (Passion) هي وحدها الخليقة بالإيمان، هي وحدها المُقنعة "[1] فلا حقيقة عند الفرد إلاّ ما يحياه وينفعل له. ولهذا كانت **كل حقيقةٍ انفعاليةً** عنده.

ولقد جعل سارتر من الشعور الباطني نقطة البدء الأولى لكل فن، ولكل أدب، ولكل فلسفة، حتى أن التفلسف صار ينبع عنده، من داخل الشعور ومن صميم الوجدان.

2 . الشعور هو دائما، يتجه إلى العالم الخارجي، ولا يرضى لذاته، أن تكون منطوية على نفسها.

إن **الأنا المُدْرِك** عند "هُسَّرل Husserl"[2] يستلزم بالضرورة، **قصدا** مُعيَّنا أي اتجاها نحو **موضوع مدرَك** لأن الوجدان عنده دائما وجدانُ شيء.

وفي هذه النقطة، يؤكد سارتر بأن العالم يكون قبل تدخل الوجدان الذي يعرفه، خليطا لامعقولا. وهذا الشعور باللامعقولية هو الذي يجلب "الغثيان"[3]. يقول: "إن علاقتي بالعالم هي التي صيَّرَتْه بالنسبة إليَّ ذا دلالة، إذ أنه صار قابلا

---

[1] . سارتر، (الخوف والقشعريرة) : Crainte et tremblement, p. 165.

[2] . وهو صاحب الفلسفة الظواهرية الذي يرجع إليه الفضل في وضع الأرضية التي أقامت عليها الوجودية حركتها.

[3] . ولقد سمى إحدى رواياته بـ"الغثيان" (La Nausée ؛1938).

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

للمعقولية، وهو يتكون من ظواهرَ هي التي تؤلف الموجودات الحقيقيةَ". ومعنى هذا، أن العالم "الفي ذاته" لا يسير إلى الوجود، **إلا بواسطة الإدراك** الذي لدينا عنه. وإذن، فالعالَمُ يتنوَّعُ بتنوع الأفراد والشعوب والعصور، بل إن السيكولوجيا التقليدية قد سجلت أن الرسَّام وعالِمَ طبقات الأرض والمهندسَ والراعي يرون في **المشهد الطبيعي الواحد أشياءً مختلفة**، ولكنَّ الفلاسفة لم يعرفوا كيف يستخلصون النتيجة المُرادةَ من هذا. ولسنا نحن الذين نتعلق به، وإنّما هو الذي يتعلق بنا مطلقا، **وهو بدوننا ليس شيئا**[1].

وعليه، فالإنسان هو الذي يخلق العالَمَ الحقيقيَّ الموجود بالنسبة إلينا؛ وليس هذا فحسب، بل إن هذا العالَمَ المخلوق يتنوع تبعا للغايات التي يهدف إليها الإنسان.

3 . الغرض من هذا لقد جعل" كيركجورد" الوجود الذاتي في علاقته مع العالم، **أصلا لكل بحث ولكل فلسفة** مقابل تصور "هيجل" الذي كان ينظر إلى الفصل بين العقل والوجود، بين الإنسان والعالم على أنه شيء طبيعي ومعقول جدا. قال في يومياته سنة (1835): " كان شغلي الشاغل أن "أجد حقيقةً، ولكنْ بالنسبة إلى نفسي أنا؛ وأن أجد الفكرة التي من أجلها أريدُ أن أحيا وأموتَ". وهذا الشغل يفترض الاختيارَ والتغير والانفراد والذاتية وهو الهمُّ المُتَّصل.

---

[1] . محمد غلاب: نفس المصدر السابق . ص: 56.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

رابعا : هل يُرتجى من كون الإنسان إنسانا أي من كونه مشروعا ووجودا مترامیا، الحصولُ على السعادة أو على العكس من ذلك، الارتماءُ في يَمِّ المخاطرة، وما يترتب عنها من قلق وتشاؤم؟

1 . الحرية

إن **الإنسان حر مختار**، وفي اختياره يقرر نقصانه، لأنه لا يملك تحقيقَ الممكنات كلِّها. فهو يسعى بين الإمكان (وهوالوجود الماهوي) وبين الواقع (وهو الوجود في العالم)؛ وذاتُه تعلو على نفسها بأن تنتقل من الممكن إلى الواقع، فتحقق ما تقرَّر تحقيقُه؛ وفي هذا التحقيق تَخاطرٌ، لأنها معرَّضةٌ للنجاح والإخفاق. ومن الشعور بالمخاطرة (Le risque) **ينتابه القلق**؛ لأنه على وعي بأن تشكيل ماهيته بين يديه ؛ وفي تشكيلها، **يتحمل المسؤولية ليس فقط، عن اختياره كوجود، وإنّما عن مصائر جميع الناس**؛ ويتم ذلك على الرغم من أن اختياره لا يُقترن برؤية، ولا يكون مسبوقا بتدبير عقليٍّ أو تحديدٍ لغاية أو معرفةٍ لبواعث. مما يفضي به لا محالة إلى الضيق والقلق والحيرة. راجع الحوار في الصفحات السابقة.

وإذا كان الواحد منّا مضطرا إلى الاختيار، فذلك لأنه لا بدّ من أن يفعل، إذ **الفعل هو الوجود وبغيره لا يوجد الفرد**. ولكي يفعل، ليس في وُسعه أن **يفعل كل الممكنات**، بل لا بد له من أن يختار أحدَ أوْجُه الممكنات العديدة. لكن الاختيار معناه نبذُ إمكاناتٍ أخرى موضوعة أمامه، وهذا الإقرار مخاطرة. ومن

جميع الحقوق محفوظة ©

هنا، قال "كيركجورد" : إن الاختيار يجر إلى الخطيئة وإلى المخاطرة ؛ والمخاطرة بطبعها ، تؤدي إلى القلق واليأس[1].

و**الحرية اختيار مطلق** ؛ والاختيار ينطوي على النبذ، مما يسمح للعدم بوُلوج الوجود. ولهذا، كان في الوجود هُوَةٌ وثغرة لا يمكن ملؤها أبدا. و**لا سبيل إلى الخلاص من اليأس.**

ليس منشأ القلق عند "سارتر"، الأحاسيسَ والعواطف على نحو ما هو عند غيره من الوجوديين، وذلك طبيعيٌّ، لأن الفكر عنده، يبدو أنه يخنق العواطف أو يكتم أنفاسها. **وإنّما منشؤه هو مجموعة نتائج اختيارنا** للقواعد التي يسير عليها في سلوكه، دون أن يستطيع الحكمَ على قيمتها التي هي ذاتُها، تنشأ من هذا الاختيار نفسه؛ وأصل هذا القلق هو شعور الفرد في أثناء فعله الحر، بالخطيئة الناشئة بالضرورة عن الاختيار، لأن الاختيار نبذٌ للممكنات.

2 . الموت

أما اللحظات العليا للوجود، فهي تلك التي يكون فيها الوجودُ مهددا في كيانه الأصيل، إنها وجود الموت؛ لأنه إذا كان لا بد من الموت، فماذا يبقى للحياة من معنى؟ وهذا التساؤل له وقعٌ شديدُ الألم لدى الوجوديين الملحدين، بوجه أخص.

---

[1] . عن عبد الرحمن بدوي، دراسات في الفلسفة الوجودية، راجع فصلي المقال، كيركجورد ، ص (30-49).

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

أما الوجوديون المسيحيون[1]، فإن الإنسان عندهم، معلق في كلّ **لحظة بالأمر الإلهي الذي يحتفظ به في الوجود**. إلا أنه يعيش هو الآخر، القلق الذي يزيد زيادة مطردة بسبب شعوره الحاد بالسير المتواصل نحو الموت.

3 . تناقض الوجود

وإذا كانت الأشياء متناهية، فلماذا أعيش بين المتناهي واللامتناهي، بين الزمني والسرمدي؟ أليس هناك ما يدعو إلى القلق المستمر؟

وفي هذه النقطة، يرى سارتر بأن الوجود في ذاته، مَلْءٌ ثابت ليس فيه من الدينامية شيء؛ فهو يستحيل أن يكون مجلوبا من غيره أو من موجود ممكن؛ لأنه يتعلق بوجود الأشياء والموضوعات، كالشجرة والجبل وهو المعنِي بالواقع؛ أما الوجود لذاته، فيتصف بالتغير وعدم التماسك؛ فهو يحمل عنصر الإعدام Anéantissement[2]، ويمكن أن يُهدم نفسه ليجعل من نفسه شيئا آخر[3].

والوجود في ذاته متناه ؛ وسِرُّ التناهي فيه، هو دخولُ الزمان في تركيبه. أما الوجود لذاته، فهو وجود يَدخل في مقوّماته العدمُ، والعدم يكشف عن نفسه في حال القلق. وهذا الوجود تناقض، لأنه نقطة التلاقي بين المتناهي واللامتناهي بين الزمني والسرمدي. فهو في فرديته المتناهية مغمورٌ في الزمان، يعود إلى نفسه ويدور حولها مؤكِّدا لنفسه في عينيتها و فردانيتها . ولكن الوجود

---

[1] . وكذا لدى المسلمين المعاصرين أمثال عبد الرحمن بدوي.

[2] . ما دام الإنسان يختار، فإنه بالضرورة يحمل أسباب عدمه؛ فقد لا يتمكن من تحقيق كلّ مشاريعه؛ و قد يخطئ الصواب. و يتجلى ذلك في إخفاقاته و انزلاقاته.

[3] . عبد الرحمن بدوي: نفس المصدر السابق . ص، 169 وما بعدها.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

بوصفه حضورا في اللامتناهي وفي السرمدية، إنما يعود إلى الله ، إلى المطلق[1]. وفي هذا، تقاطع بين الفردية المنطوية على نفسها، والحضرة المشارِكة في الرابطة مع الله.

هكذا إذن، نخلص إلى أن وجود الأشياء لا يعرف (لا يعيش) وجود الزمن أوّلا، ولا يدرك معنى الحرية ثانيا؛ أما الإنسان فهو وحده الذي يستطيع أن يُحِسَّ بالحرية ويشعر بمدلولها وامتداداتها. وهو الكائن الوحيد الذي يحس بالوجود الحقيقي.

4 . تعدد الوجدانات مصدر للنزاعات

هذا، وإن الآخرين بالنسبة إليَّ كما يعبر عن ذلك سارتر، ليسوا سوى موضوعاتٍ كالموضوعات الأخرى، وإذن فهُم يتعلقون بي أنا الذي هُم مَدينون لي بوجودهم في العالم. ولكني أعرف أنهم ذوو وجدانات مِثلي، وأنهم يتمثلون العالم في وجداناتهم حَسْبَ وجهات نظرهم؛ بل أنا نفسي متضمَّن في هذا التمثل بالنسبة إليهم كوسيلة أو كأداة. وبسبب هذا التعدد للوجدانات، قد حدثت تلك المنازعات.

ففي الواقع، أنه عندما يقتحم أحدُ الآخَرين تمثُّلي للعالم، أشعر بأن العالم يَفِرُّ مني، وأن عناصره تنتظم حول القادِم الجديد؛ وحينئذ، أشعر أن جميع الأشياء التي كانت لي، تُدير وجهَها نحو هذا الآخر، وتَفِرُّ مني إليه؛ ولا يكتفي

[1] . وهو تعبير يستعمله المؤمنون من الوجوديين.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

هذا الآخرُ بأن يسرق العالَمَ مني، بل هو يريد أن يَستخدِمَني أنا نفسي. إنّه يحاكمُني وتكُون له عني فكرةٌ حسب جسمي؛ أي حسب ما مضى دون أن يكترث بمشروعاتي، أي بما أريد أن أكُونَه في المستقبل؛ وذلك الذي أريد أن أكونه هو وجودي الحقيقيُّ. وإذا لم أدافع عن نفسي، فإنَّ ما يريد أن أكونه، سأكونُه ؛ وإذ ذَّاك أجد نفسي شيئا بين أشياءِ عالَمِه هو. ومن هذا، ينشأ العارُ وينشأ شعوري بأنّي كائنٌ، قد سُلبَتْ منه مميّزاتُه وصار تابعا.

وهنا، **فجوهر العلاقة بين الوجدانات، ليس هو الرابط بينها، كما يرى بعض الوجوديين**، وإنما هو **التنازع بينها**، وأنا الذي **أحقق ذلك عمليا بواسطة التضايق الذي أشعر به حين أكون مع الغير**، إذ أكون دائما، في خطر. فكلّ واحد منّا في الواقع، يريد أن يُوجَدَ؛ أي يريد أن يُنفِّذ مشروعه بتحقيق كلّ إمكانياته؛ وهو من أجل ذلك، يَجْحَدُ جميعَ مشروعات الآخرين[1].

وأخيرا، إن انحباس كلِّ واحد منا في وجوده الخاص، يَحُول دون فهمنا للغير، كما يحول دون فهم الغير إيَّانا. ومن هذا، يتأتى جميع سوء التفاهم والأحكام الظالمة الأبدية التي يتبادلها الجميع بلا انقطاع.

وحاصل الأمر والجدير بالملاحظة، أن الشعور بالقلق الذي هو عامٌّ بين هؤلاء جميعا، يذهب في الشعبة الملحدة إلى ما هو أبعد من معنى الحياة المأساوية، فيقودُها إلى اليأس؛ بينما أن اليأس . بالنسبة إلى الوجوديين المسيحيين . ليس سوى فتنةٍ عابرة، وأن الأمل عندهم، هو الذي يصنع أساس الحياة، وهو فيها بمثابة الشرط الأساسي. ومن هؤلاء الوجوديين المسيحيين،"**غ. مارسيل**" الذي كان

---

[1] . J.P.Sartre, L'être et le néant, p.313 ; 434.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ككلّ الوجوديين، يشعر بعاطفة القلق، وعلى الأخص القلق الناشئ عن فكرة الموت، وضيق الحياة وقصر الزمن المتروك للاختيار أمام عُظْم الأبدية[1].

وباختصار؛ أخي الطالب ؛ إن مغايرة الإنسان للأشياء تجعله كائنا يتمرد عن نواميس وقوانين هذه الأشياء، لأنّ وجوده البشري سابق لماهيته، ولأنه الموجودُ الوحيد الذي يعيش وجودَه من أعماقه وبكل كيانه، ولأنّه أخيرا، وبوعيه هذا، وعلى الرغم من حرية اختيار أفعاله، يشعر بضعفه أمام فهم الآخرين، وبقصوره عن تحقيق كل رغباته الممكنة، وبعجزه عن تجنّب المخاطرة ورفض الموت. إن الإنسان من حيث أراد أن يتجه إلى معرفة ذاته باعتبارها حقيقة الحقائق، فَضَلَتَ منه فهم العالم الخارجي، و وجد نفسه أمام عقبات نفسية ومعرفية أنهكت كاهلَه وضيّقت عنه سبل السعادة والسكينة.

[1] . يقول "غ. مارسيل" عن نفسه: " لست بعيدا عن الإيمان بأن الأمل بالنسبة إلى النفس هو بمثابة التنفس للكائنات الحية؛ وعندما ينعدم الأمل تجف النفس وتنهك". عن محمد غلاب، نفس المصدر السابق، ص: 36.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

خاتمة : حل المشكلة

إن النسقية التي يقوم عليها كلٌّ من المذهب البراغماتي والمذهب الوجودي، تخلع على كليهما **صدق منطقه الداخلي**، وتحصن تماسكه من اضطرابات التدخل النقدي التعسفي، وتحفظ مقاصد محتوياته من تشوه القراءات الخارجية. ومع ذلك، فإن من يأخذ بهذا وذاك لا يرتكب بالضرورة ما نسميه "بجريمة منطقية"، إن هو أدرك خصوصيات كلِّ واحد منهما وعرف كيف يستثمرهما.

فقد نأخذ بهما متفرقيْن كنسقين وُضعا خدمةً لمقاصد معينة : إن استئناسي بالفلسفة العملية بغرض استثمارها في حياتي اليومية،لا يمنعني في وقت آخر ولفترةٍ، الاستئناسَ بفلسفةٍ تُرجعني إلى باطني وتسوقني إلى أعماقه لأعيش ما يخالجه من حالات نفسية، وأختبر مدى تمكني من إثبات ذاتي وحريتي. وهذا يجعلني من جهة، أُقبل على الحياة مع الغير، وأنخرط فيما يشغلنا فيها معًا، وأنسحب من جهة أخرى، من العالم الخارجي ، أتفقد ذاتي وأتأمل ما يملؤها من قلق وانزعاج. ليس الإنسان إما هذا أو ذاك. فقد يأخذهما معا من أجل مثلا، التوفيق بينهما مع الحفاظ على رسوم كل واحد منهما كما يصنع مفكرو الإسلام مثلا، **بشأن الوحي والعقل**، وخاصة منهم " ابن رشد"، أو من أجل التركيب بينهما، كما يصنع أهل المنطق الجدلي، حيث يتم تجاوز الثنائية المطروحة نحو توجُّه أو تركيب جديد. إذن، فقد يأخذ بهذا تارة، وبذاك تارة أخرى، وبالتناوب. وليس ممنوعا أنّه إذا أخذ بهذا الآن، لن يأخذ بعده، بذاك.

وكمخرج من هذه الإشكاليةالرابعة(المذاهب الفلسفية)، إن الاختلاف بين المذاهب . مهما كانت أشكاله . لا يعنى عدم اتفاقها وعدم تقرب بعضها إلى بعض. فهو لم يعد في مفهومه، حاجزا يمنع تقدير التوجهات التي اختارها

أصحابها، وتثمين جهودهم، ما داموا يصنعون مواقف متماسكة يحمكها منطق، ولها ما يبرّرها. وعلى هذا الأساس، يكون من الشرعي التساؤل عما هو الفرق من الناحية الشكلية، بين القول بأن مصدر المعرفة عقلي أو تجريبي مثلا، طالما يحافظ الخطاب الفلسفي على أسس معقولة واضحة وآليات منطقية معلنة؟ وما هو العيب من هذه الناحية أيضا، في الدفاع عن موقف يُرجع المعرفة إلى مصدر مزدوج يجمع بين العقل والتجربة ما دام الموقف هذا قائما على منطق مفهوم حتى وإن خالف في أصله المنطق المألوف أو التقليدي؟ ويمكن تعميم هذه الملاحظة على كل المذاهب الفلسفية.

وفي هذا السياق، يمكن القول بأن الفكر العقلاني، لا يختلف عن الفكر التجريبي ولا عن الفكر البراغماتي أو الوجودي من حيث إن لكلّ فكر في هذه المجالات قاعدتَه وبناءه . **فقد يسلِّم الفكر بصحةِ منطلقٍ ويسعى إلى تأييده بالحجة والبرهان، وقد يسلّم بفرضية، وعندئذ، يسعى إلى البرهنة على صدقها أو خطئها. فالسرّ في هذا البناء أو ذاك، ليس في هذه المسلمة أو تلك، وإنّما في النسق الذي يصل المنطلق بالمنتهى؛ أي بين المقدمات والنتائج في حلقات متسلسلة ومنطقية.**

إذا نحن انطلقنا مع العقليين، من أن ما يميز الإنسان هو العقل لا الحواس، أدركنا جيدا التقابل الذي يترتب عن ذلك وهو أن العقل يقابل الحواس، وأن ما يتصف به الأول من ثبات في أحكامه يختلف عنه في الحواس من حيث إنها لا تثبت على حال؛ وأن ما لا يثبت على حال متغير ولا يدعو إلى الاطمئنان؛ كما يترتب على ذلك، أن ما تأكد ثباته يبقى صالحا مدى الدهر

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ليكون حجر الأساس الذي إذا أقيم عليه بناء، لا يتسرب إليه شق ولا يؤذن بانهيار. وسيان أن يكون البناء من حجر أو رخام أو صلب زجاج.

وإذا انطلقنا مع التجريبيين في اتجاه معاكس، من أن العقل عبارة عن صفحة بيضاء، لا وجود فيها لمبدأ ولا لقوالب فكرية مسبقة، عرفنا، عجزه في إمدادنا بالمعرفة في غياب التجربة. واستنتجنا كيف أنّه عن طريق الحواس وما تتركه فيه من انطباعات، يأخذ العقل في التكوُّن ومن ثمة، يصبح الإنسان عارفا وعاقلا.

وإذا جئنا إلى المذهبين البراغماتي والوجودي، وقمنا بالعملية ذاتها مع اختلافٍ في المضمون والموقف :

. إذا كان المنطلق الذي يأخذ به البراغماتي لا يشكل لديه مشروعا قابلا لإنتاج آثارٍ عملية نفعية، بات عبارة عن خرافة، شأنه شأن الكلام الفارغ. وعلى هذا الأساس، وجب الثورة على كل الفلسفات المجرَّدة والمُغلَقة والحلولِ المعلقة في فضاء العلل الأولى والأسباب القَبْلية مهما كانت أسماء هذه الفلسفات عقلانية كانت أو تجريبية أو غير ذلك؛ ووجب في مقابل ذلك، احترام كل مذهب . مهما كان لونه . يدعو إلى الانصراف من المبادئ والأوليات إلى النتائج والغايات، لأن العبرة بالنتائج والصدق صدق لأنه نافع.

. وإذا انطلقنا مع الوجوديين من أن الوجود الحقيقي ليس هو وجود الأشياء الهامدة التي تستجيب لنظام مُطَّرد من قوانين الكون والتي أوهمت الفضول البشري بأنها هي الحقيقة التي يفهمها عن طريق العلم أو عن طريق البحث عن العلل الأولى، وإنما هو الوجود الإنساني الذي نشعر به من دواخلنا

ونحياه بكل جوارحنا، وهو وجود يتمرد عن نظام الكون لأنه تجاوزٌ مستمر لما هو عليه كل واحد منا، أدركنا ما يترتب عن ذلك من حقائق، وهي أنه لا يمكن أن يتساوى في هذا السياق وجودُ الإنسان الفرد ووجود الأشياء لأن الشعو أو الحدس هو الوسيلة التي تُناسِبُ الوجود الإنساني. ولا يرضى لذاته، أن تكون منطوية على نفسها لأنه دائما، يتجه إلى العالم الخارجي. وكل محاولة فكرية تجعل الأشياء الخارجية مستقلة عن الذات العارفة، وتعتبرها مصدر الحقيقة، وتنظر إلى الوجود باعتباره لاحقا للماهية، محاولة تخطئ السبيل نحو بلوغ حقيقة الإنسان من حيث إنه وجودٌ يتولىَّ تحديدَ ماهيته بنفسه، وجود لا معنى له في غياب الحرية.

ولكن ألا يخشى أن تصلُّب النسقية قد يحوِّل المذهب إلى تزمت ويدفع أنصاره إلى اعتبار المذاهب الأخرى مارقة وعدوانية.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

تطبيقات : نص فلسفي

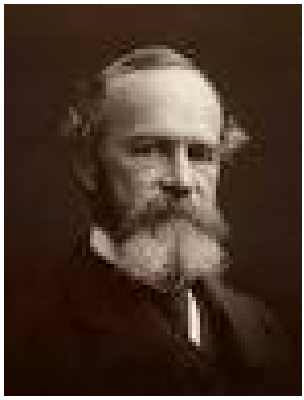

وليام جيمس 1842 – 1910

« إنّ الحقيقة البراغماتية تطرح ... سؤالها المألوف : إذا ما وقع التسليم بأنّ فكرةً من الفِكر، أو اعتقادا من الاعتقادات صحيحٌ فما هو الفرق العيني الذي سينتج عن ذلك، في الحياة التي نحياها؟ وكيف سنحقق هذه الحقيقة؟ وما هي التجارب، التي ستحدث، عوض التجارب التي يمكن أن تحدث، لو كان اعتقادا فاسدا؟ وباختصار ما هي القيمة التي تتضمنها الحقيقة، بالعمليات الجارية، وبالعبارات الجاري بها العمل في التجربة؟ إن البراغماتية بطرحها هذا السؤال، ترى على الفور الجواب الذي يتضمنه: إنّ الأفكار الصحيحة هي التي يمكننا أن نستسيغها، والتي يمكننا أن نتثبت من صحتها، والتي يمكننا أن ندعّمها، بقبولنا إياها، والتي يمكننا أن نتحقق منها. والأفكار التي لا يمكننا أن نفعل ذلك بالنسبة إليها هي أفكار فاسدة. هذا هو الفرق العملي الموجود في نظرنا، بالنسبة إلى امتلاك الأفكار الصحيحة، وهذا . إذن . ما يجب أن يقصد بالحقيقة. لأن هذا هو ما نعرفه بهذا الاسم. تلك هي النظرية التي التزمت الدفاع عنها، إن صدق فكرة من الفكر ليس خاصية توجد محايثة لها، وتبقى عديمة النشاط. إنّ الصدق حادثة تقع من أجل فكرةٍ من الفِكر[1]. فتصير هذه صادقة، وتصبح ببعض الحوادث، إنها تكسب صدقها، بعمل تحققه،

[1] . فِكَر وهي جمع فِكْرة.

http://www.onefd.edu.dz
جميع الحقوق محفوظة ©

وبالعمل الذي يتمثّل في أن تحقق نفسها بنفسها، والذي هدفه ونتيجته التحقق منها. وهي كذلك تكتسب صحتها بإنجاز العمل، الذي هدفه ونتيجته، هو إثبات صحتها. بل ما هي الدلالة البراغماتية لكلمتي" التحقق " و "إثبات الصحة"؟ فماذا تعني بعض النتائج العملية للفكرة التي تتحقق والتي تصير مقبولة؟ من الصعب أن نجد كلمة واحدة، تعينها تعيينا دقيقا، أحسن مما تفعله كلمة " المطابقة " العادية، إذ أن هذه النتائج، هي بالضبط ما يخطر ببالنا عندما نقول إن أفكارنا " تتطابق " مع الواقع، وعندئذ فإنّ هذه الأفكار . في الحقيقة . عن طريق الأفعال التي تحملنا عليها، وكذلك عن طريق الأفكار الأخرى التي تبعثها فينا، إمّا أنّها تتوغل بنا داخل بعض الأجزاء الأخرى من التجربة، وإمّا أنّها توصلنا إليها، وإمّا أنّها على الأقل، توجّهنا نحوها، بحيث أنّها تشعرنا طوال هذه المدة كلّها، بتطابقها مع الأجزاء الأخرى من التجربة. وعندئذ تتمثّل لنا الارتباطات والانتقالات، كما لو كانت قائمة بشكل منسجمٍ مرضٍ. وعندئذ فإنّ التطابق مع الواقع، معناه في النهاية : ملاءمته. وهذه الوظيفة التي تمثّل بالنسبة إلى فكرة من الفِكر، في أن تكون هادية، وهادية ملائمة، وهي ما أقصده بالتحقق ».

وليام جيمس

البراغماتية

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

تذكير بأهم الكفاءات المكتسبة من خلال دراسة الإشكاليات والمشكلات السابقة :

.

إنّ من تتبعا الدروس التي تضمّنها الإرسال الأول والجزء الأول من الإرسال الثاني الموجّهين لطلبة **السنة الثانية ثانوي** للتعليم والتكوين عن بُعد " شعبة آداب وفلسفة "، لا شك في أنّه يكون قد أدرك أن كلّ **إشكالية** لها نسقها بالنظر إلى ما تنطوي عليه من **مشكلات جزئية**، وأن الإشكاليات مجموعة تنضوي هي الأخرى، تحت نسقية أوسع هي نسق الأنساق؛ وأن الحديث عن الفلسفة، لم يعد قائما على ما تنطوي عليه هذه المادة من محتوى ومضمون معرفي، بقدرما أصبح قائما على **الفائدة الإجرائية والعملية والفكرية**، أو على **الكفاءات** المتنوعة والهامة التي يكتسبها المتعلّم أو المتفلسف من دراستها.

ولا شك في أن المتعلِّم الذي مارس محنة التفلسف من خلال تعامله مع هذه " الإشكاليات ومشكلاتها الجزئية "، يكون قد :

أدرك **أولا**، طبيعة العلاقة بين متقابلين، لأنّه لا يعقل أن يبدأ التفلسف دون **التمييز** بين مختلف صور التقابل والمفارقات، فيما بين طرفين أو أكثر، وهي صور ومفارقات تعتبر **أصلا في إثارة الحيرة، والقلق**. ومما يدعّم هذا المنطلق، **الاهتمام بآليات التفكير المنطقي**.

وتحكّم **ثانيا**، في آليات التفكير المنطقي حيث تمّ له اكتساب الأدوات التي تحصن فهمه للآراء الفلسفية من الانزلاقات، والتي يستثمرها إجرائيا في تحصين تفكيره واستدلالاته.

وتوصّل **ثالثا**، إلى التعبير عن المعرفة في روح شمولية، وهي كفاءة تمكّن المتعلِّم من تخطّي الحدود الزمانية والمكانية لاعتناق الفكر الإنساني الواحد،

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

على تنوع مشاربه وتعدّد تصوراته، وهوالأمر الذي ييسّر الحوار بين الناس ويعدّ أسباب تلاقح توجهاتهم ومعتقداتهم.

وفاز **رابعا**، باكتساب الفهم السليم والروح النقدية، وهو مطلب لا تدعو إليه مادة الفلسفة وعلم المنطق فقط، وإنّما تدعو إليه أيضا وبإلحاح، فلسفة العولمة ومنطق الحوار بين الحضارات. ومن لوازم هذا الفهم السليم،إدراك منطق التوجّهات الفلسفية ونسقها، ومحتوى أطروحاتها، واستثمار ذلك، في تحرير المقالات : و**الهدف البعيد** الذي يكون قد حقّقه المتعلِّم، هو **تقديم إنتاج فلسفي**، من خلال تحريره للمقالات الفلسفية، على ضوء ما يستثمره ممّا لديه من مكتسبات معرفية ومنهجية. ولهذا، لا يُخشى على المتعلِّم، الدخول في ثقافة الآخرين، ولا يخشى عليه، الوقوع في مزالق السهو وإساءة الفهم، ولا في شباك النظرة الأنانية الانطوائية أو الشعور بالقصور والنقص. ومن جهة أخرى فإنّ **التحكّم في آليات الفكر النسقي** . **الكفاءة الختامية الأولى** . يؤهّله للممارسة الفعلية التفلسف من خلال طرحه لبعض قضايا العلاقات بين الناس (حركة التنافر والتجاذب) التي سيتضمنها الجزء الثاني من الإرسال الثاني والإرسال الثالث.

تمرين : .

مشْكِل الأطروحة التالية : « إن جميع معارفنا قوامها العقل ».

عندما تنهي محاولتك في الإجابة عن هذا التمرين بإمكانك أن تقيّم نفسك بالنظر إلى نموذج الإجابة المرفق في ملحق الإرسال الثاني والثالث.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©